الفصل الخامس
السلطان وشخصيات مهمة

السلطان عبد الحميد الثاني ومدحت باشا

لم تكن المشاكل التي واجهت السلطان عبد الحميد عبارة عن الصعوبات الاقتصادية التي ورثها عمن سبقه، بل كانت هناك ضغوط خارجية تمخضت عن الحرب العثمانية الروسية في الفترة من ١٨٧٧- ١٨٧٨ التي عرفت بحرب ثلاثة وتسعين وخاض السلطان عبد الحميد الحرب ضد روسيا مرغماً، حيث لم يكن يريدها، لكن الصدر الأعظم مدحت باشا، بإيحاء من إنجلترا، دفعه لدخول الحرب الروسية دفعاً. فليس من العقل أبداً أن تبادر دولة مثل الدولة العثمانية بدخول الحرب وهي تعاني كثيراً من الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لذلك فإن السلطان عبد الحميد الثاني أوضح في مذكراته عدم رغبته في الحرب بقوله كنت دائماً ضد الحرب، وإني أنصح إخوتي وأبنائي الذين سيأتون بعدي ألا يشتركوا بعد الآن في أي حرب قصيرة كانت أو طويلة كنت أقول ان الحروب التي انتهت بالنصر ترهق الأمة، كما ترهقها الحروب التي تنتهي بالهزيمة إن الرفعة والمكانة تكون محمودة في البلاد العامرة التي ضمنت مستقبلها ولا شيء أسوأ وأكثر مهزلة من ركض العراة الجائعين في البلدان المعدمة خلف السمعة والشرف ,كان السلطان يدرك أن الدولة العثمانية ليست قادرة على خوض حروب في تلك الظروف، فعزل مدحت باشا الذي دفعه للحرب وتسبب في وصول الروس حتى يَشيلْ كُويْ من رئاسة الوزراء ونفاه إلى مكان بعيد حرصاً

على سلامة الدولة أما الدولة الوحيدة التي خرجت بنصيب الأسد من هذه الحرب فهي إنجلترا، حيث اقتطعت قبرص من الدولة العثمانية لأنها أرغمت الروس على التوقف عند يشيل كوي، وكان مدحت باشا السبب الأول فى كل ذلك ولم يكتفِ السلطان بعزل مدحت باشا من منصب الصدارة، بل أنهى العمل بالدستور الذي نسب إليه، حيث اقتبسه مدحت باشا من الدستور البلجيكي ، وصدق عليه السلطان في ٢٢شعبان ١٢٩٢هـ الموافق ١٨٧٦/٩/٩م وتوضح المصادر أن مدحت باشا أعدَّ هذا الدستور مستعيناً بالإنجليز أكثر مما استعان برجال الدولة العثمانية لذلك أخرج السلطان عبد الحميد الثاني كثيراً من المواد من النص الذي اقتُبس أساساً من المشرعين الغربيين وحذْفُ السلطان عبد الحميد الثاني هذه المواد من النص الدستوري دليلٌ على ميول السلطان عبد الحميد وعلى جوانبه التي تختلف مع مدحت باشا منذ البداية، وهي مهمة في تحديد السياسة الخارجية التي قرر السلطان تطبيقها تجاه الدول الأجنبية. وكان نص إحدى المواد الذي حذفها السلطان من مشروع الدستور يقول على تركيا التي أخذت لها مكاناً في الوحدة الأوروبية، أن تتشبَّه بدول أوروبا وأن تطبق أصولها وتراعي نظمها الدستورية وإننا نعلن عن قبولنا لشكل الحكومة في هذه الدول مع الأخذ بعين الاعتبار الأحكام الشرعية والعرفية عندما يقرأ الإنسان هذه السطور السابقة، يدرك بشكل أوضح مدى إصرار البعض على الإنضمام إلى مجموعة الدول الأوربية

في وقتنا الحاضر، وماقدمه هؤلاء من تنازلات فلقد رأى مدحت باشا قبل مئة سنة ونيف أنه من الضروري التشبه بالدول الأوربية والانقياد لأنظمة الحكم عندها بل والتنازل من أجل ذلك عن القوانين العرفية والشرعية .

لقد أراد مدحت باشا أن يحقق حلمه الذي راوده أيام كان والياً على الشام، وهو أن يكون ملكاً للعرب منذ أن أصبح رئيساً للوزراء ولكن السلطان عبد الحميد الثاني كان العقبة الكأداء وعما يفكر مدحت باشا فى إزالة هذه العقبة يقول السفير الفرنسي في اسطنبول في برقيته التي أرسلها في ١٨٧٧/٢/٦ إلى باريس أستطيع أن أقول معتمداً على ماحصلت عليه من معلومات خطيرة جداً أن السلطان عزل مدحت باشا ونفاه إلى خارج البلاد بعد أن علم بواسطة بوليسه السري أنه يدس الدسائس ويحتال لاستلام الحكم وتجريد الخليفة من جميع سلطاته فينشغل بالمسائل الدينية ولايتدخل في الشؤون السياسية، وأن يصبح هو الدكتاتور والحاكم والوحيد لهذه الدولة واعتمد السلطان عبد الحميد في إعلانه حالة الطوارىء ونفيه مدحت باشا إلى الطائف في السعودية على المادة رقم ١١٣ من النص الدستوري الذي ألغاه التي تقول عندما تظهر إشارات وأمارات تدل على تمرد في جهة ما من البلاد فإنه يحق للحكومة السنية أن تعلن الأحكام العرفية مؤقتاً وبشكل خاص في هذه الجهة. والأحكام العرفية هي عبارة عن تعطيل مؤقت للقوانين والأنظمة وتحديد

شكل الإدارة لتنفيذ الأحكام العرفية في هذه الجهة بشكل خاص أما الذين يثبت عليهم إخلال بأمن الدولة من خلال التحقيقات الموثوق فيها التي تجريها الإدارة العرفية فإن إخراجهم وإبعادهم من الممالك المحروسة السلطانية يكون حصراً من صلاحيات جلالة السلطان.

السلطان وجمال الدين الأفغاني

وصل جمال الدين إلى الأستانة ، فلقي من حكومة السلطان عبد العزيز حفاوة وإكراماً، إذ عرف له الصدر الأعظم عالى باشا مكانته، وكان هذا الصدر من ساسة الترك الأفذاذ، العارفين بأقدار الرجال، فأقبل على الأفغاني يحفه بالاحترام والرعاية، ونزل من الأمراء والوزراء والعلماء منزلة عالية، وتناقلوا الثناء عليه، ورغبت الحكومة أن تستفيد من علمه وفضله، فلم تمض ستة أشهر حتى جعلته عضواً في مجلس المعارف، فاضطلع بواجبه، وأشار بإصلاح مناهج التعليم، ولكن آراءه لم تلق تأييداً من زملائه، ولم يكن على وفاق مع شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي، وفي رمضان سنة ١٢٨٧ هـ ديسمبر سنة ١٨٧٠م ، رغب إليه مدير دار الفنون أن يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات، فاعتذر باديء بدء بضعفه في اللغة التركية، فألح عليه، فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل إلقائه، وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية، فأقروه واستحسنوه.

وألقى الأفغاني خطابه فى دار الفنون، في جمع حاشد من ذوي العلم والمكانة، فنال استحسانهم، لكن خلافًا حدث بينه وبين شيخ الإسلام، وأصدرت الأستانة أمرها إلى المترجم بالرحيل عن الأستانة بضعة أشهر، حتى تسكن الخواطر، ويهدأ الاضطراب، ثم يعود إليها إن شاء، ورغب إليه بعض مريديه أن يتحول إلى الديار المصرية، فعمل برأيهم وقصد إليها.

كان جمال الدين فى لندن فورد عليه كتاب بدعوته فلبى الطلب وذهب إلى الأستانة سنة ١٨٩٢، وكانت هذه المرة الثانية لوروده هذه المدينة، كانت المرة الأولى في عهد السلطان عبد العزيز ، حيث دعاه السلطان عبد الحميد الثاني إلى جواره، وأغلب الظن أنه أراد أن يخدم سياسته في الجامعة الإسلامية باستضافته ، لكي يظهر للعالم الإسلامي أنه يرعى العلم والعلماء من الأمم الإسلامية كافة، وقد لبى جمال الدين دعوته، آملاً أن يرشده إلى إصلاح الدولة العثمانية، لأن مقصده السياسي هو نهوض دولة إسلامية أياً كانت إلى مصاف الدول العزيزة القوية، فسار إلي الأستانه لتحقيق هذا المقصد، وحفه عبد الحميد الثاني بالرعاية والإكرام وأنزله منزلاً كريماً في قصر بحي (نشان طاش)، من أفخم أحياء الأستانة، وأجرى عليه راتباً وافراً، قيل أنه خمس وسبعون ليرة عثمانية في الشهر، ومضت مدة وجمال الدين له

عند السلطان منزلة عالية ؛ ثم ما لبث أن تنكر له، وأساء به الظن، واستمع إلى الوشايات والدسائس فاستولت عليه الحيرة والعجب من نفوذ كلمة الأفغاني ونفاذ أمره ، وكان السلطان عبد الحميد خلال تلك الفترة راضياً على الأفغاني كل الرضا ولكن أزعج نجاح السلطان عبد الحميد في التقرب من إيران مراجع الشيعة، فعملت على فتح جبهة الأرمن ضد الدولة العثمانية ودعمتهم ١٨٩٤-١٨٩٦م، وطلبت أن يكون ثمن إيقاف دعمها للأرمن ترحيل الأفغاني من اسطنبول، ورافق هذا المطلب الإيراني اكتشاف السلطان حقائق مريبة عن الأفغاني، وأنه ليس أفغانيا بل إيراني وأنه شيعي متستر بالسنة وله علاقات بالإنجليز والماسونية، فوضعه السلطان في الإقامة الجبرية ولم يسمح له بالخروج من اسطنبول إلى أن مات سنة ١٨٩٧م.

وكان الأفغاني قد اقترح على السلطان عبد الحميد ضم أجزاء من العراق إلى إيران لحسم الخلاف الدائر بين الشيعة وأهل السنة، وبرر ذلك بأنه يقرب الشيعة ويضمهم إلى مشروع الجامعة الإسلامية، وكان الشيخ أبو الهدى الصيادي الذي نال حظوة كبرى عند مولاة يكره أن يظفر أحد بثقته فوشى بالأفغاني عند السلطان وأوغر عليه صدره فاحيط الأفغاني بالجواسيس يحصون عليه غدواته وروحاته، ويرقبون حركاته وسكناته.

ذكر الأمير شكيب أرسلان في هذا الصدد في كتاب حاضر العالم الإسلامي أن الأفغاني كان وعبد الله النديم الكاتب والخطيب المشهور في متنزه الكاغدخانة، فصادفا الخديوي عباس حلمي وسلم بعضهم على بعض، وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك، فقيل أن الشيخ أبا الهدى قدم تقريراً للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوي على الاجتماع في الكاغدخانة، وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة، ويقول الأمير شكيب أن السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية، ولكنا نميل إلى الأعتقاد أنها تركت أثراً في نفسه، وغيرت قلبه على الأفغاني، وذكر أن الذي أدى إلى وحشة السلطان منه استمراره في مجالسه على القدح في شاه إيران ناصر الدين، مما حمل سفير إيران على الشكوى منه إلى السلطان، فاستدعاه، وطلب منه الكف عن مهاجمة الشاه فقبل، ولكن حدث أن قتل الشاه سنة ١٨٩٦ ، فاشتدت الريبة في جمال الدين، واتجهت إليه شبهة التحريض على قتله، فأمر السلطان بتشديد الرقابة عليه، ومنع أي أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية، فأصبح محبوساً في قصره.

ويبدو أن جمال الدين الأفغاني كان على علاقة طيبة بالسلطان عبد الحميد ، ولكن بمرور الأيام إذا بهذه العلاقة تنقلب رأساً على عقب ، نفهم هذا من قول السلطان عبد الحميد : وقعت في يدي خطة أعدها في

وزارة الخارجية الإنجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنجليزي اسمه بلنت قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك ، واقترحا على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين كنت أعرف جمال الدين الأفغاني هذا عن قرب ، كان في مصر وكان رجلاً خطيراً ، اقترح عليّ ذات مرة ـ وهو يدَّعي المهدية ـ أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى ، وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا، وكان رجل الإنجليز.

السلطان عبدالحميد وزعيم اليهودية العالمية هرتزل

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية تيودور هرتزل أن يحصل على تأييد أوروبي للمسألة اليهودية من ألمانيا،وبريطانيا وفرنسا وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبدالحميد، وطلب فلسطين منه وكانت الدولة العثمانية تعاني من مشاكل مالية متعددة، إذ كانت الأحوال الاقتصادية في البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة وجود بعثة مالية أوروبية في تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضماناً لديونها ، الأمر الذي دفع السلطان عبدالحميد الثاني ليجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثغرة هي السبيل الوحيد أمام هرتزل، كي يؤثر على سياسة

السلطان عبدالحميد الثاني تجاه اليهود وفي هذا الصدد يقول هرتزل في مذكراته: علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا .

مليونان منها ثمناً لفلسطين والباقي لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوروبية ومن ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأي قروض جديدة يطلبها.

لقد أجرى هرتزل إتصالات مكثفة مع المسؤولين في ألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا وإنجلترا وكانت الغاية من هذه الاتصالات إجراء حوار مع عبدالحميد الثاني وفي هذا الصدد فقد نصح لاندو منذ ١٨٩٦م الصديق اليهودي لهرتزل أن يقوم بواسطة صديقه نيولنسكي رئيس تحرير بريد الشرق وفي هذا المجال يقول هرتزل: إن نحن حصلنا على فلسطين ، سندفع لتركيا كثيراً أو سنقدم عطايا كثيرة لمن لمن يتوسط لنا .ومقابل هذا نحن مستعدون أن نسوي أوضاع تركيا المالية سنأخذ الأراضي التي يمتلكها السلطان ضمن القانون المدني، مع أنه ربما لم يكن هناك فرق بين السلطة الملكية والممتلكات الخاصة.

وقام هرتزل بزيارة إلى القسطنطينية في يونيو عام ١٨٩٦م ،ورافقه في هذه الزيارة نيولنسكي ، الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبدالحميد، ونتيجة لذلك نقل نيولنسكي آراء هرتزل إلى قصر يلدز، وقد دار غضب السلطان الكبير عبد الحميد الثاني أمام المنظمات اليهودية

حينما طلبوا منه السماح للاستيطان اليهودي في فلسطين وفى محاورة بين نيولنسكي والسلطان عبدالحميد قال السلطان له :هل بإمكان اليهود أن يستقروا في مقاطعة أخرى غير فلسطين؟ أجاب نيولنسكي قائلاً:تعتبر فلسطين هي المهد الأول لليهود، لذا فإن اليهود لهم الرغبة في العودة إليها ورد السلطان قائلاً إن فلسطين لاتعتبر مهداً لليهود فقط، وإنما تعتبر مهداً لكافة الأديان الأخرى أجاب نيولنسكي قائلاً في حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإنهم سوف يحاولون الذهاب وبكل بساطة إلى الأرجنتين.

قام السلطان عبدالحميد بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها :انصح صديقك هرتزل، أن لايتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأني لا استطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض، ورووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملاييهم إذا مزقت دولتي ، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة.

وفي هذا الصدد يقول السلطان عبدالحميد في مذكراته:من المناسب أن نقوم باستغلال الأراضي الخالية في الدولة، وهذا يعني من جانب آخر، أنه كان علينا أن ننهج إتباع سياسة تهجير خاصة، ولكننا لانجد أن

هجرة اليهود مناسبة، لأن غايتنا هي استيطان عناصر تنتمي إلى دين أسلافنا وتقاليدنا حتى لايستطيعوا الهيمنة على زمام الأمور في الدولة.

وبعد إخفاق جهود هرتزل في واسطة نيولنسكي ، اتجه هرتزل إلى قصر وليم الثاني أمبراطور ألمانيا، ولاسيما أنه كان صديقاً للسطان عبدالحميد، بالاضافة إلى كون وليم الثاني هو الحليف الوحيد للعثمانيين في أوروبا إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح .

السلطان وأحمد عرابى

أعجب السلطان بأحمد عرابى لأنه رأى فيه الشخصية الوطنية التى يتمناها ولوقوفه فى وجه الخديو الذى أغرق بلاده فى الديون وعزل السلطان الخديو الذى كان سرح ٢٥٠٠من الضباط المصريين من الخدمة فأعاد الخديو مرة أخرى أحمد عرابى ورقاه إلى رتبة أمير آلاى وأعطاه الباشاوية ثم لما جاء الخديو توفيق ارتفعت مكانة عرابى وأراد أن يكون جيش وطنى ويحصن البلاد فقام بعمل ترميمات وإنشاءات فى بعض القلاع والحصون ومنها قلاع الاسكندرية ولم يعجب هذا الحال انجلترا التى كانت تطمع فى احتلال مصر فقامت ومعها فرنسا بارسال إنذار مشترك إلى عرابى الذى رفض الانذار وانحاز الخديو إلى انجلترا وارتمى فى أحضانها وذهب اليهم فى الاسكندرية واحتمى بهم من بنى دينه وأراد خديعة عرابى ليذهب له إلى الاسلاكندرية ثم يقبض عليه فطلبه لملاقاته

ولكن عرابى رفض وضغطت انجلترا وفرنسا على السلطان الذى طلب من عرابى ترك التحصين فى قلاع وحصون الاسكندرية مؤقتاً وإلى حين لكن رفض عرابى جعل من السهل على السلطان اصدار فرمان عصيان عرابى تحت التهديد البريطانى الفرنسى المشترك مما أضعف مكانة عرابى أمام جنده وعادت الناس فلم تقف إلى جواره وتعرض لعدة خيانات كان نهايتها ونتيجة لها سقوط مصر ولكن يجب أن نعلم لماذا تصرف السلطان هكذا فهو لم يقف فى صف الاحتلال بل كان يرى محاولة حل المشكلة بشكل دبلوماسى ليؤخر سقوط مصر فى قبضة انجلترا حيث رأى ان رفض عرابى الانذار هو الذى عجل بالاحتلال الانجليزى للبلاد٠